فلسفة الصوم

كانت العبادات على اختلافها معروفة فى الأديان الوثنية القديمة ، ولكن الأديان الكتابية هذبتها ووفقت بين معانيها وفضائل النفس فى عهود التقدم والحضارة ، وأزالت عنها أدران الهمجية ومعائب القسوة والجهالة وبقايا الأساطير الأولى .

ومن العبادات القديمة فى تاريخ التدين عبادة الصوم بأنواعه الكثيرة ، ومنها الصيام عن بعض الطعام والصيام عن الطعام كله ، والصيام فى بعض ساعات اليوم ، والصيام فى أيام متواليات ، وصيام الشكر وصيام الرياضة ، وصيام التكفير .

ومن المرجح دائما أن العقائد التى تلازم النفوس زمنًا طويلًا لا ترجع فى نشأتها إلى أصل واحد ولا علة واحدة ، والصيام أحد هذه العقائد التى تحصى لها أصول كثيرة فى علم الأجناس البشرية وعلم المقابلة بين الأديان ...

فهو فى بعض مظاهره ضرب من عبادة الموتى أو عبادة الأرواح ..

فكان بعض الناس يجوعون باختيارهم حزنًا على موتاهم ، ثم تطور هذا الصوم فأصبح مفروضًا على الأحياء ترضية لأرواح

الموتى ، لكيلا تغضب هذه الأرواح إذا تمتع الأحياء بالطعام وبالشرب وهى محرومة منه ، ولهذا يقترن الصيام أحياناً بتقديم الطعام عند القبور ، كأنما يريد الأحياء المتقربون إلى الأرواح أن يقولوا لها .. إنهم لا يضنون عليها بالطعام ولا يستبيحون الأكل والشراب إلا بإذن منها ، وبعد الاستجابة لمطالبها ...

وفى كتاب « الغصن الذهبى » للسير جيمس فرازر إشارات وافية إلى أنواع الصوم التى تفرضها الغريزة الجنسية فى بعض مظاهرها . فهناك قبائل كثيرة فى الأمريكتين تفرض الصيام عن الطعام والاحتجاب عن النور عل كل فتاة بلغت مبلغ النساء . فتعزل الفناة فى جانب من الكوخ ويحال بينها وبين النور ، كما يحال بينها وبين تناول الطعام من اللحوم والأسماك ، وربما منعوها الطعام جميعا من لحم ونبات خلال الأيام التى تعتريها فيها عوارض الأنوثة الأولى ، ويفعلون ذلك لاعتقادهم أن الفتاة فى هذه الحالة تستولى عليها روح إلهية غيور ، فلا يحسن وهى تحتل جسدها أن تدخل إليه شىء من الطعام ، ولا يحسن كذلك أن يراها أحد من الناس .

ولا شك أنهم خصوا الفتيات بهذه العبادة دون الفتيان لأن علامات البلوغ الجسدية ظاهرة فى الفتاة دون الفتى ، ولأنهم يعتبرون الحمل علامة محسوسة من علامات دخول الأرواح فى أجساد النساء .

وبعض الصيام يرجع إلى إرضاء أرباب القبيلة ولا سيما الأرباب التى تتكفل لها بالنصر فى ميادين القتال . فإذا خرج المحاربون إلى غزوة من الغزوات لزم الكهان محاريب العبادة والتزموا الحمية والتهجد ، وحرموا على أنفسهم شرب الماء إلا أن يكون حارًا لا ينقع الظمأ ولا يطفئ الغلة ، لزعمهم أن شرب الماء البارد يلقى على حمية الجنود بردًا ويصيبها بفتور . فتركن إلى الهزيمة وتجنح إلى التسليم ، ولكنها لاتزال حارة مشبوبة العزائم مادام الكهان فى محاريبهم يتقدون بحرارة الظمأ وحرارة الماء الساخن ، وحرارة الدعاء .

وهناك أسباب أخرى تقترن بنشأة الصوم فى القبائل الهمجية الأولى ، بعضها باق إلى عصرنا هذا بين القبائل التى لا تزال على الفطرة ، يشاهده السائحون فى هذه الأيام ، كما نشأ فى تلك القبائل منذ قرون وأجيال .

إلا أن الصوم فى الأديان الكتابية شىء آخر غير هذا الصوم فى غرضه ومعناه ، لأنه ارتقى من مرتبة التعاويذ والحيل التى تصطنع لمداراة الأرباب والأرواح ، إلى مرتبة الرياضة النفسية والأدب الذى تعالج به الضمائر والأخلاق .

وقد تعددت حكم الصوم فى رأى رجال الدين من المسلمين وغير المسلمين ، فحكمة الصوم عند بعضهم أنه تعليم للأغنياء ليشعروا بحاجة الفقراء ، وحكمته عند بعضهم أنه تكفير عن

الخطايا بعقاب الأجساد التى تعانى ما تعانيه من الجوع والظمأ ، وعند بعضهم أنه تطهير للجسم وتنزيه عن الحاجات الحيوانية إلى الطعام والشراب . وأحسن الحكم موقعًا من العقل والنفس أن الصوم تدريب للعزيمة والخلق وتغليب لقوة الروح . وهو شرف إنسانى لا يزهد فيه الأغنياء ولا الفقراء . أما الصيام تعويدًا للأغنياء على الفقر واستعطافًا لهم على المحرومين - فهو من حاجات الأغنياء التى يستغنى عنها الفقراء ، وكل من هؤلاء وهؤلاء مفروض عليه الصيام .

كذلك تنزيه الجسد عن المطالب الحيوانية لا يمنع الإنسان أن يشعر على كل حال بأنه محتاج إلى الطعام والشراب ، ولا مصلحة له فى نسيان هذه الحقيقة مادام يذكرها دائما بعد ذلك النسيان .

فأحسن ما يقال فى حكمة الصوم كما فرضته الأديان الكتابية أنه رياضة نفسية وأنه تدريب للخلق والإرادة .

والذين ينكرون الأديان ويذكرون للصوم أضرارًا جسدية يغفلون عن الواقع الذى كان فى وسعهم أن يتنبهوا إليه . لأن التمرينات العسكرية كثيرًا ما تقوم على فرض الشدائد الجسدية على الجنود تصحيحًا لأجسامهم وتعويدًا لهم على مقاومة الطوارئ التى يستهدفون لها من قبل الحر والبرد ، واختلاف الطعام والشراب . وكثيرًا ما يفرض الأطباء نوعًا من الصيام على بعض

المرضى فيستفيدون منه ، ولا يمنعهم من تحقيق فائدته أنهم يغيرون عادات التغذية أو مواعيدها بضعة أيام أو بضعة أسابيع .

أما الذين يأخذون على الصيام أنه إنكار للذات وبقية من بقايا تعذيب الجسد فى شيعة الهنود الأقدمين – فهؤلاء يعكسون معنى الصيام من النقيض إلى النقيض ، لأن الصيام إثبات للإرادة وتقرير للعزيمة . ومن أثبت إرادته وقرر عزيمته فهو فى الواقع يعزز نفسه ولا ينفيها أو ينكرها ، وعلى نقيض ذلك من سخر نفسه لشهواته واستسلم للمغريات التى تحيط به ، فإنه فى الواقع ضائع النفس منكر الذات ، متقلب بين العوامل الحسية كما تتقلب الريشة فى مهاب الرياح ، وليس أثبت نفسا ولا أبعد من فناء الذات ممن يعرف له نفسًا مستقلة عن إغراء المطامع والشهوات ، أو يسيطر بإرادته على معيشته فى ألزم الأشياء لجسده ، وهما الطعام والشراب .

فالصيام رياضة معقولة ، ورياضة قوية ، وليست هى رياضة الأمم التى تعاف الحياة وتزهد فى نصيبها من الدنيا ، بل هى رياضة الأمم السيدة المطاعة ، لأن الإرادة أول شرط من شروط السيادة ، وليس أظهر من قوة الإرادة فى أداء فريضة الصيام ...

ونعتقد أن طريقة الصيام فى الإسلام هى أنفع الطرق فى تربية الإرادة واستقلالها عن العادة التى تشبه الأوامر الآلية فى بعض الأحيان . لأن العزيمة تتجدد بالصيام الإسلامى كل يوم ،

إذ يتحول الصائم كل يوم من إباحة المطاعم والمناعم فى ساعات الليل إلى تحريمها فى ساعات النهار ، وهذه مزية للطريقة الإسلامية تجعل العزيمة أمرا متجددًا ما بين الصباح والمساء ، ولا تلحقها بحكم العادة التى يستمر عليها الصائم ثم يألفها بالاستمرار فلا يحتاج إلى القوة النفسية التى يحتاج إليها فى أوائل الصيام . ومن استطاع فى كل يوم أن يعقد عزمه على الصوم شهرا كاملا فتلك استطاعة باقية لا تخذله بقية أيام السنة ، ولا تحتاج إلى مرانة أطول من هذه المرانة فى كل عام .

ولا يحسب على الصيام ما يقع فيه بعض الناس من الشطط والإسراف ، أو من سرعة الانتقال بين الحرمان المطلق قبل غروب الشمس إلى المتاع المطلق بعد الغروب . فكل رياضة من الرياضات هى عرضة لمثل ذلك الشطط وذلك الإسراف ، ومن تجاوز الحد فى السباحة أو فى العدو أو فى حمل الأثقال فإنما اللوم عليه فيما يصيبه وليس على فنون الرياضة التى يقصدها الرياضيون .

ذكرت فى كتابى المراجعات قصة صديق توفاه الله منذ سنوات ، كان كثير الاطلاع على كتب الفلسفة العربية صريح الفكر لا يصدق بشىء قط على السماع ، وكنت أعرف أنه لا يؤمن بالأديان ولكنه يصوم شهر رمضان صيام الأتقياء . وكنت أعجب لهذه الظاهرة النفسية الغريبة وأسأله عن تعذيب

نفسه فى غير نية التدين أو الرياضة وأستطلع منه العلة التى يعلل بها ذلك فيقول لى - إننى أستحى أن أرى فى النهار مدخنا أو آكلا أو شاربًا ولا أحب أن أضعف عن الصيام وحولى من يقدرون عليه . وأسأله - فإذا خلوت بنفسك ألا تشرب الماء أو تلم بالتدخين .. ؟ فيقول لا وهو صادق فيما عهدته منه ، ويعلل ذلك بأنه يأبى أن يفطر منفردا عن الناس لأنه لا يحب أن يعترف لنفسه بمراءاتهم والنفاق فى حضرتهم .

وهذا أثر من آثار الصيام فيمن لا يدين به ، فكيف بمن يدين به ويقبل عليه بالنية والضمير .. ؟

على أن الصيام قد أصبحت له فى العالم الإسلامى اليوم مزية غير مزيةالرياضة الروحية والفريضة الدينية ، لأنه أصبح موسمًا اجتماعيًا تتغير به مظاهر الحياة البيتية والاجتماعية فى بلاد المسلمين . ولا نظير لهذا الموسم الاجتماعى بين أبناء الأديان الأخرى على اختلاف مذاهبها فى الصيام ، لأن الزائر الغريب قلما يشعر بفرق ظاهر بين الحياة العامة التى يحياها أبناء تلك الأديان فى أيام الصيام ، وفى غير أيامه ، ولكنه يشعر بهذا الفرق فى كل مكان حيثما نزل بأمة من الأمم الإسلامية ، لأن ليالى رمضان بسهراتها وزياراتها وأفراح الأطفال فيها هى موسم نادر المثال بين مواسم السنة وفصولها ، وهى الفرصة التى تتاح فيها الألفة بين الناس أشد ما تتاح بين جموع تتكون من الملايين

وعشرات الملايين ، فموسم رمضان هو موسم أسرة واحدة تأكل فى موعد واحد وتسهر على نمط واحد وتصلى وتتلو الدعاء فى أوقات معلومة لكل فرد من أفرادها وتتزاور وتتشاور ، وتعمل ما وسعها لبسط السلام ومنع الخصام ، وهذه الأسرة الواحدة هى أمم الإسلام .

تحية لهذه الأسرة الكريمة فى هذا الموسم الكريم ، ورجاء لها أن تظفر منه بجدواه الكبرى وهى مضاء العزيمة وتغليب الرشد على الغوية . فهى بهذه الفضائل النفسية تمضى على سنن السيادة وتنجو من ربقة الضعف والخنوع ، وهى تؤدى بفريضتها الدينية فريضة للعالم بأسره ، لأن العقيدة الدينية قد تخص شعبًا من الشعوب ، ولكن الخير الذى تؤتيه تلك العقيدة يشمل بنى الإنسان ..